عَناقيدُ عِنَبٍ

1. عاشَتْ في بيت مكوّنٍ مِن غُرفتين صَغيرتين، لم تمسَّهُ يدُ الإصلاح منذُ بَنَتْهُ لهم إحدى الجمعيّات الخيريّة، مع والِدَين كُتِبَ عَلَيْهِما الشَّقاءُ والعَناءُ والمكابدةُ من كثرةِ العيالِ وتَزاحُمِ الأفْواهِ على لُقمةِ العَيش.

2. كانت "رجاءُ" بِكْرَ أَبَوَيْها، في الثانيةَ عشرةَ من عُمْرِها، دفعَها مَرَضُ أُمِّها إلى تركِ المدرسةِ إلى غيرِ رَجعة، فاستبدَلَتْ المِكنسةَ وصَحْنَ العَجينِ بالكتاب، ووَجْهَ أُمِّها الذابلَ الحزينَ بوجهِ المُدَرِّسَةِ الشّابِّ المتفتّح للحياةِ والمستقبل.

2. وفي غَمرةِ الصّراعِ المادّيّ العنيفِ، تفتَّقَ ذهنُ الوالدِ عن مَشروعٍ يزيدُ به دَخْلَ الأُسرةِ، فابتاعَ بقرةً حلوبًا نظيرَ التّنازُلِ عن مَصاغِ زَوْجِهِ الذي احتفظتْ بهِ منذُ زواجِهما. وقد أَلْقى هذا المشروعُ الجديدُ مَزيدًا من المتاعبِ على الفتاة، فكان عليها أن تذهب في رحلةٍ يوميّةٍ شاقّة، تحمل وعاءَ اللّبن على رأسِها، لتُوزّعهُ على بيوتِ المُتْرَفين في المدينةِ المجاورة.

4 .. كانت الفتاة تقطعُ الطّريقَ التّرابيّ، حافيةَ القَدمين، تَسْتُرُ جسمَها النّحيل بأسمالٍ باهتةٍ، تتجوّلُ في شوارعِ المدينةِ وأزقّتِها، تنظرُ بعينين يملؤهُما الحزن والانكسار إلى كلّ ما يصادفُها :واجهاتِ المحالّ التّجاريّة... بائع الكباب... أولاد يَتَباهون بملابسِهم ذاتِ الألوان الزّاهية... سوق الخضراوات والفواكه.

5. كانت تتأمّلُ في صَمتٍ... تتَوجَّعُ في صَمت، وقد أكسبَتْها مشاويرُها اليوميّةُ مزيدًا من الجَلَدِ والخبرةِ بالحياة، وإحساسًا مُتَناميًا بتَصَرّفاتِ البَشَر، واكتنزَتْ كلَّ مُشاهداتِها في عَقلِها الصّغير.

6 ..مرّتْ بسوقِ الخضراوات ذاتَ يوم، فرأتِ الحوانيتَ تَزْدانُ بفواكهِ الصّيفِ الشّهيّة: العنب، والبطّيخ، والشّمّام، وقد نُسِّقَتْ بطريقةٍ تجذبُ أنظارَ الزّبائن، أعجبَها نداءُ البائعين وأغانيهم: "مال الشّيخ عِجْلين يا عِنَب"... "عسل يا شمّام"... "على السّكّين يا بطّيخ". أخذتْ تُنصِتُ، وعيونُها معلّقةٌ بكَومةِ العنبِ الّتي صُفَّتْ عناقيدها في شكلٍ هَرَميّ جميل، إنّها تنظرُ إلى الزّبائنِ الّذين يُساومون، ويتذوّقون عناقيدَ العنب، ليتأكّدوا من نضجِهِ وحلاوتِهِ... تمنّتْ أن تشتري، ولو عنقودًا منها.

7 . في تلك اللّحظةِ لاحَتْ في مُخيّلتِها صورة والدِها مُكِبًّا على قطفِ عناقيدِ العنبِ من المزرعةِ الّتي يعملُ بها هذه الأيّام، يتذوّقُها، ولكنّهُ لا يستطيعُ أن يُحضِرَ إلى بَيْتِهِ ولو حَبّة واحدة، إذ إنّ صاحبَ العملِ يراقبُ العمّالَ عند مغادرتِهم المزرعة... ويعتذرُ لهم بأنّ العنبَ في أوّلِ الموسمِ، وهو غالي الثّمن .تذكّرتْ ما قالَهُ والدُها، وقد ارتسمَتْ على مُحيّاه علاماتُ الكآبة: "لقد وعدَنا المسؤولُ عن العمّالِ أن يُعطينا ما نريدُ من العنبِ آخرَ الموسم. "

8. شَهِيّتُها إلى حبّةِ عنبٍ تزدادُ... تحتلبُ ريقَها وتبتلعُه... ماذا تفعل؟ إنّها تقتربُ من كومةِ العنب... تسمّرَت قدماها بجانبِ البَسطةِ... كيف لها أن تَمْنَعَ رَغبتها الجامحة في تَذَوّقِها؟ أيحقُّ لها أن تختلس حبّةً لتتذوّقَها؟ نحّتِ الفكرةَ جانبًا... أتشتري عنقودًا صغيرًا وتأكلُه في الطّريق؟ صَفَعَها البائعُ: "بعَشرة الكيلو يا عِنَب"... تحسَّسَتْ ما بيَدِها من حَصيلةِ بيعِ الحليب، فوجدَتْ أنّها لا تكفي لشراءِ كيلو غرامٍ واحد من العنب، وبينما كان الصّراعُ في داخلِها مُحتدِمًا بين الشّهوةِ والفِعل، صدمَتْها يَدٌ هَوَتْ على صُدغِها، وطيّرَتِ الشّررَ من عَينيها، وصَوتٌ اهتزَّتْ لهُ خلايا جسمِها كلُّها: "ابتعدي عن البسطة، هيّا."!!

9. لم تنبس بكلمةٍ واحدة، فقد أذهلَتْها الصّدمةُ، فتَنَحَّتْ جانبًا مُبتعدةً عن العيونِ الّتي ترقُبُها، وأخذَتْ تذرفُ الدّمعَ جزافًا في صَمت. بقيت واجمةً، بينما تُواصِلُ طريقَ عودتِها إلى البيت، وكلُّها إحساسٌ بالضّعفِ والمَهانة.

10. . في البَيتِ، شَعَرتْ بإعياءٍ شديد... لم تعُد لها شهيّةٌ لتناولِ الطّعام، وبعدَ دقائق أسبَلَتْ جفونَها المُنهَكَةَ، واستسلَمَت لنَومٍ عميق... ماذا ترى؟ إنّها سحابةٌ عظيمةٌ تجوبُ الفضاءَ في سرعة... سَنا البرق يكادُ يخطف الأبصار، ودويّ الرّعد يملأ الكون... والأمطارُ تهطلُ بغزارة كأنّها الطّوفانُ... إنّه الغرقُ... لا، ها هي الشّمسُ تتوسّطُ كَبِدَ السّماءِ كبيرةً عظيمة... ضوءُ الشّمسِ يتوهّجُ... تنقشعُ الغيوم... تغيّرتْ ألوانُ البيوت... البيوتُ تزدهي وتتطاول... على جدرانِها تلتفُّ الأزاهيرُ والورود... يخرجُ الأولادُ من البيوتِ أشتاتًا... ملابسُهُم جميلةٌ أخّاذة، يدقّون الأرضَ بأحذيتهم الحمراء... تحسَّسَتْ جسمَها... إنّه ممتلئ... والملابسُ جديدة... حملتْ وعاءَ اللّبن وأخذت تجري، فتناثرتْ منه قِطَعُ النّقود بشكلٍ عشوائيّ... قصدَت السّوقَ... العنبُ كثيرٌ، والباعةُ يمازحون الأولاد... اشترتْ بعضَ العناقيد، ووضعتْها في الإناء، وعادَت لتُطعِمَ إخوتَها.

LIVEWORKSHEETS

11. هزّها صوتُ أمّها: "رجاء... رجاء... قومي يا رجاء... نمتِ نومًا طويلًا... ألم تَشْبَعي من النّوم؟! لقد عادَ أبوك، ومعهُ العنبُ."!

LIVEWORKSHEETS